المحاضرة الثالثة: الرحلة المفهوم والأسس

تقوم الحكاية الرحلية على محكي السفر كبنية قاعدية تعكس تجربة ذاتية غنية ، قائمة على تذويت العوالم في الإطار المحدد للرحلة في ذات الزمان والمكان.

"النص الرحلي يعد نصا مذوتا ينطلق مما تعكسه الذات من نوازعها وتكوينها الثقافي. يستطيع المكان المرتحل إليه أن ينحرف بالذات إلى الكشف المباشر وغير المباشر من خلال وسائط تعبيرية تتشكل تلقائيا. كما أنها تحيل استطرادا على كثير من المرويات التاريخية والتأملات الفلسفية. وفي كل هذا يكون المكان، البؤرة الوحيدة التي يتأسس عليها محكي السفر بكل تشعباته" (عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص62).

إذا كانت الرحلة نصا حكائيا يتمحور أساسا حول قصة السفر من نقطة الانطلاق إلى العودة، فإنّ هذا لا يعني أنّ مادتها ستقتصر عليها، بل إنّ النص الرحلي يتكون إضافة إلى ذلك من نسيج متعدد لمحكيات صغرى تتخلل الحكاية الأساس، فتلتقي ضمنها كل الأنواع القابلة لأن تدخل ضمن جنس السرد أو الخبر. (عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث، ص62).

كثيرا ما تحتوي مادة الرحلة على العناصر الأدبية جنبا إلى جنب مع المعلومات الإثنوجرافية. مثال ذلك وصف ابن جبير في رحلته مدينة دمشق وصفا يحضر فيه العنصر الأدبي متمثلا في جمال اللفظ وحسن التعبير. يقول: "جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه، صلى الله عليهما، إلى ربوة فيها ذات قرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل" (حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص14).

احتل أدب الارتحال موقعاً أساسياً في السرد العربي القديم، واقترن بـ"مغامرة فردية"، خاضها الرّحالة في عوالم مختلفة من عوالمهم، فخلّف ذلك سرداً ثقافياً، عُني بوصف تجارب التطواف مشتبكةً بأحوال تلك العوالم، وقد نزع التمثيل السردي إلى التقريرية، إذ غادرت اللغة كونها وسيلة إيحاء، وترميز، وبناء حكاية متخيّلة، كما هو الأمر في كثير من الأنواع السرديّة، وأصبحت أداة بحث في القضايا: الدينية، والتاريخية،

والاجتماعية، وفي رسم صور الأمم التي عاشرها الرحالة؛ فتجربة الارتحال تورث الشغف، والإثارة، والفضول، لأنها تشبع نزوعاً راسخاً، هو الاكثر شيوعاً عند بني البشر، تمثّله الرغبة في معرفة الأحداث: الطريفة، والنادرة، وغير المألوفة، ثم متعة التوغل في عوالم مجهولة، والسير في هدي الاحتمالات، وخوض مغامرة، دون اكتراث بالعواقب، وهذا ما يجعل نصوص أدب الرحلة تصنف ضمن "السرد الثقافي". (عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ج3، ص6).